الباب الأول

مواصفات الأنبياء قبل النبوة

الفصل الأول : المواصفات العامة .

الفصل الثاني : المواصفات الخاصة

بمحمد ﷺ قبل ظهور نبوته .

مدخل وتمهيد

تجمع الأديانُ السماويةُ الثلاثةُ على أنَّ الأنبياء منذ نوح وحتى محمَّد عليهم الصلاة والسلام أجمعين كانوا يتمتَّعون بخصائص ومواصفات واضحة ومتميزة ، تجعل أقوامهم لا يذكرونهم إلا بخير ، ولا يكنُّون لهم إلا الاحترام والمودة ، أو على الأقل لا يحتقرونهم ، ولا ينبذونهم ، ولا يضطهدونهم ، ولا ينفرون منهم ، وذلك قبل أن تظهر نبوتهم .

ومع أنَّ هذه الخصائص والمواصفات الشكلية والظاهرية ليست شرطاً كافياً لقبول نبوَّة نبي من الأنبياء ؛ إلا أنَّ الله تعالى قد أراد لأنبيائه كمالاً يؤهِّلهم للنبوَّة ؛ بحيث لا تقبل شخصية أيِّ نبيٍّ منهم طعناً ، أو نقداً يوجّه إليه من قبل عشيرته المدعوة إلى الإيمان به ، تلك العشيرة التي سوف تبحث في كلِّ ما يتعلَّق بالنبيِّ عند إعلان نبوَّته ، وعندها لن تجد تلك العشيرة في شخص النبيِّ ما يجعلهم يطعنون فيه ، وبالتالي في نبوَّته .

هذا الكمالُ في شخصيات الأنبياء قبل نبوَّتهم لا يبدو لنا سوى أمراً أراده الله لتسهيل مهام الأنبياء ؛ عن طريق تمييل قلوب أقوامهم إليهم من جهة ، ولفت أنظار أقوامهم إليهم قبل نبوَّتهم .

ويمكن تقسيم مواصفات ما قبل النُّبوَّة إلى قسمين اثنين :

الأول : مواصفات ما قبل النبوَّة العامة :

ونقصد بها المواصفات والخصائص التي منحت إلى الأنبياء كافة على الإطلاق ، وقبل أن يظهروا أو يعلنوا نبوَّتهم على أقوامهم .

الثاني : مواصفات ما قبل النبوَّة الفردية :

ونقصد بها المواصفات والخصائص التي منحت إلى محمدٍ ﷺ بالإضافة إلى المواصفات والخصائص العامة كافة ؛ التي كانت للأنبياء كلهم الذين سبقوه في النبوَّة .

وفيما يلي تعدادٌ للخصائص والمواصفات العامة التي اتصف بها الأنبياء قبل نبوَّتهم ، وسنأتي على شرح كلٍّ واحدةٍ منها لاحقاً وبالتفصيل :

١ـ ذكورة الأنبياء .

٢ـ سلامة عقول الأنبياء .

٣ـ سلامة حواس الأنبياء .

٤ـ سلامة أعضاء الأنبياء .

٥ـ ملاحة وجوه الأنبياء .

٦ـ اكتمال الشكل العام للأنبياء .

٧ـ سموّ أخلاق الأنبياء .

٨ـ سلامة وطهارة نسب الأنبياء .

٩ـ عدم ميل الأنبياء إلى الشرك ، وابتعادهم عنه .

١٠ـ جهل الأنبياء بالمعارف البارزة في عصورهم .

١١ـ مقدرة عقول الأنبياء على استقبال خبر نبوتهم .

١٢ـ حفظ الله أنبياءه من الهلاك قبل ظهور نبوتهم .

١٣ـ كسب الأنبياء لمعيشتهم من تعب أيديهم قبل النبوة .

الفصل الأول

المواصفات العامة

١ـ ذكورة الأنبياء :

أجمعت الكتبُ السماوية الثلاثة على أنَّ النبوة محصورةٌ في ذكور البشر فقط ، ولم تكن النبوة قطُّ لأنثى من إناثهم ، كذلك لم تكن النبوة قطُّ في خنثى ، وهي حالة الجنس الشاذة عند البشر .

ورغم أنَّ التوراة نسبت النبوة إلى مريم أخت موسى وهارون عليهما السلام[١] . إلا أنَّ التوراة أكَّدت أن مريم أصيبت بالبرص عقاباً لها من الله ؛ لأنها ادَّعت النبوَّة ، وشفاها الله بناءً على دعوة موسى عليه السلام لها بالشفاء[٢] ، كذلك فقد ورد في إنجيل لوقا أنَّ حنة بنت فنوئيل كانت نبيَّة ، لكنه لم يقدم الدليل على ذلك[٣] .

هذا ولقد أجمعت الكتب السماوية الثلاث أيضاً أنَّ الأنبياء لم يكن أحدٌ منهم ملاكاً ، ولا جنيّاً ، ولا شيطاناً .

وبالنسبة لسن النبوة فإن أعمار الأنبياء حسب القرآن الكريم ليست

---

(١) العدد (١٢، ٢).
(٢) العدد (١٢، ٩ـ١٦).
(٣) لوقا (٢، ٣٦).

شرطاً من شروط النبوة ؛ حيث إنَّ آدم عليه السلام خلق نبيّاً ، أما محمد ﷺ فقد ظهرت نبوته في تمام الأربعين من العمر ، وأما موسى فكان عمره ثمانين عاماً ، في حين أن هارون كان عمره ثلاثة وثمانين عاماً[1] ، وأما يحيى والمسيح عليهما السلام فقد ولدا نبيين حسب نصوص القرآن الكريم ، في حين أنَّ الأناجيل تقول : إنَّ يحيى (يوحنا) والمسيح عليهما السلام قد جاءتهما النبوَّة في سنِّ الثلاثين من العمر .

إذاً تتفق التوراة مع الأناجيل (وهم أهل الذكر) على أنَّ الأنبياء دائماً رجالٌ ، ومن هنا يتبيَّن لنا مقدار الدقَّة والمصداقيَّة التي يتمتَّع بهما القرآن الكريم عندما يخبرنا الله تعالى عن مسألةٍ معيَّنة :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾

[الأنبياء : ٧ـ٨] .

* * *

(١) الخروج (٧، ٧) .

٢ـ سلامة عقول الأنبياء

تجمع الكتبُ السماوية الثلاثة على اكتمال عقول الأنبياء ، فلم يعرف عن نبيٍّ من الأنبياء إلا الذكاء ، ولم يعرف عنهم بلادة الذهن ، ولا البلاهة ، ولا الغباوة ، ولا حتى الشرود الذهنيّ .

فكلُّهم يتمتعون بعقولٍ سليمةٍ صحيحةٍ ، ولا تشوبها شائبة ، وذلك ينطبق عليهم جميعاً ابتداءً بآدم ، وموسى ، والمسيح ، ومحمد عليهم الصَّلاة والسَّلام أجمعين .

ودليل صحة عقول هؤلاء الأنبياء هو طبيعة دعوتهم ، فإنه من غير المعقول أن تكون دعوتهم التي دعوا إليها ناتجةً عن عقل غير سويٍّ ، أو مريضٍ ، أو متخلِّفٍ ، وإلا لكان أتباع هؤلاء الأنبياء من المتخلفين عقلياً حصراً ، علماً بأنَّ المتخلفين عقلياً لا يتَّبعون أحداً ، ولا يتبعهم أحد ، حتى ولو كان متخلفاً .

والحقائق تشير إلى عكس ذلك تماماً ، فأول من أمن بموسى مشايخ بني إسرائيل[١] ، وأول من آمن بالمسيح أمُّه وإخوته الأربعة ، وأبوه بالتبنِّي يوسف المعروف بالنَّجار[٢] ، وأوَّل من آمن بمحمدٍ ﷺ زوجته خديجة ، وصديقه أبو بكر ، وهو العالم بالفراسة ، ومن كبار تجار مكة ، وكذلك ابن عمِّه علي بن أبي طالب ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وهو من

---

(١) الخروج (٤، ٣١).

(٢) متى (١٢، ٤٦)، مرقص (٣، ٣١)، لوقا (٨، ١٩).

سادات قريش ، وعثمان بن عفان ، وهو أكبر تجار قريش ، وأكثرهم مالاً .

فجميعُ هؤلاء الأنبياء اتبعهم هؤلاء الأقارب ، والمعارف ، ولو كان هؤلاء يعلمون أنَّ هؤلاء الأنبياء مجانين لما اتبعوهم .

* * *

٣ـ سلامة حواسّ الأنبياء

لم يُعرف عن نبيٍّ من الأنبياء أنَّه كان فاقداً لحاسةٍ من الحواس الخمس ، فلم يكن أحدٌ منهم أطرشَ ، أو ضعيف السمع ، وليس هناك أحدٌ منهم أعمى ، أو أعور ، كما لا يوجد واحدٌ منهم فاقداً لحاسة الشمِّ ، أو اللمس ، أو الذَّوق .

ومن غير المعقول تماماً أن يكون أحد من الأنبياء أخرسَ ، أو لديه عيب من عيوب اللفظ ، فأفأة ، أو تأتأة ، وإلا لكان عاجزاً عن أداء رسالته المكلف بها .

وربما نسب بعضُهم إلى موسى عليه السلام مثل هذا العيب ؛ لأنَّ موسى عليه السلام طلب من ربِّه أن يكون هارون عليه السَّلام نبياً أيضاً ، وفسروا ذلك بعلَّةٍ في لسان موسى عليه السلام .

وقالوا : إنَّ موسى عليه السلام بعدما التقطته زوجة فرعون ، خاف فرعون أن يكون موسى عليه السلام هو الذي سيقتله حسب رواية العرَّافين المصريين ، فأقنعته زوجته بأن موسى عليه السلام لا زال طفلاً ، وهو لا يفرق بين الجمر والتمر ، فوضعت أمام موسى عليه السلام وهو صغير تمرةً وجمرةً ، فتناول موسى عليه السلام الجمرة ووضعها في فمه .

وهذه رواية لا تتفق مع المنطق ، ولا مع النبوة ، ولا مع نصوص التوراة ، ولا مع آيات القرآن الكريم .

فإذا كانت قصة التمرة والجمرة حدثت ، فمن غير المعقول أن يضع

موسى عليه السلام الجمرة في فمه ؛ لأن يده ستحترق قبل ذلك ، وعندها سوف يملأ القصر صراخاً .

وحتى لو كرَّر فرعون هذا الاختبار ؛ فإن محاولته ستبوء بالإخفاق للأسباب نفسها ، وأما لو وضع فرعون الجمرة مباشرةً في فم موسى عليه السلام ، فلن تكون هذه المحاولة اختباراً ، بل إيذاءً مطلقاً ، وهذا مالا تريده زوجة فرعون ، ولا حتى فرعون نفسه ، ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ فرعون لو كان لديه هاجس النبوءة الكهنوتية الفرعونية حقاً لقتل موسى عليه السلام وهو طفل ، وليس هناك داعٍ لانتظار فتوة موسى عليه السلام .

هذا من الناحية المنطقية ، ومن ناحية النبوة فإنَّ عصمة الله لأنبيائه من الأذى تقتضي عدم حدوث هذه الحادثة ، وحتى لو حدثت هذه الحادثة فإنَّ الله سيشفي موسى شفاءً تاماً ، لا أثر له على كلام موسى عليه السلام .

بناءً على ما تقدَّم نتبيَّن أن موسى عليه السلام ليس من الواجب أن يكون في لسانه عيب ما ، فما هي حقيقة الأمر ؟

يقول سفر الخروج (٤ ، ١٠) : « فقال موسى للربِّ : يا رب! ما كنت يوماً رجلاً فصيحاً ، لا بالأمس ، ولا من يوم كلمتني ، أنا عبدك ، بل أنا بطيء النطق ، وثقيل اللسان » .

يتضح من هذا النَّص أنَّ موسى عليه السلام وحسب التوراة لم يكن فصيحاً ، فما هو سرُّ الفصاحة الذي أغفلته التوراة ؟

إنَّ هذا السرَّ يكشفه الله تعالى في كتابه العزيز عندما يتحدَّث عن الموقف نفسه الذي يتكلَّم فيه موسى عليه السلام مع الله عزَّ وجلَّ حيث يقول :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص : ٣٣ـ ٣٤] .

وكلمة (أفصح) الواردة على لسان موسى تكون أكثر قبولاً إذا علمنا أنَّ موسى عليه السلام تعلم اللهجة المصرية منذ طفولته في قصر فرعون ، وتعلَّم اللهجة الآرامية من بني إسرائيل عندما كبر ، في حين أنَّ هارون عليه السلام أتقن الآرامية من قومه ، وتعلَّم اللهجة المصرية من المصريين .

وعندما كلَّف الله موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون شكا إلى ربه بأنَّه قاتلٌ في عرف المصريين ، ولم يشكُ من مشكلة الفصاحة ، وعندما كلَّفه الله بأن يكون رسولاً إلى بني إسرائيل شكا موسى عليه السلام بأن لهجته الآرامية أضعف من أخيه هارون عليه السلام ، وطلب من ربه أن يكون هارون عليه السلام رسولاً أيضاً ، لأنه أقدر على التعبير بالآرامية ، وقد تربى في بني إسرائيل خلافاً لموسى عليه السلام ، فاستجاب الله له دعاءه .

فقضية فصاحة موسى عليه السلام هي قضية لهجة وليست عيباً عضوياً في لسانه .

وخلاصة القول : أنَّ الأنبياء جميعهم كانوا مكتملي الحواس ، صحيحيها ؛ إلى الحدِّ الذي لا يستطيع أحدٌ من أعدائهم أن ينسب إليهم عيباً فيها بما في ذلك موسى عليه السلام .

* * *

٤ ـ سلامة أعضاء الأنبياء

أجمعت الكتبُ السماوية الثلاثة على أنَّ جميع الأنبياء كانوا مكتملي الأعضاء ؛ فليس هناك واحدٌ منهم كان بِرِجْلٍ واحدةٍ ، أو برجلٍ مقطوعةٍ ، أو عرجاء ، وكانوا سليمي الأرجل ؛ دون خرعٍ ، أو تقوُّس في السيقان .

كذلك كانوا كلهم سليمي الأذرع ، صحيحيها ، لا يوجد بينهم أبتر ، سليمي الأكف ، لا تنقص أكفهم عقلة من بنان ، وكلُّ بنانٍ لهم سليم ، حتى أنَّ أظافرهم كاملةٌ لا ينقص منها واحد .

كذلك لا يُعرف عن أحدهم أنَّه كان أقرعَ ، أو أمردَ ، أو عديم الرموش ، ولا يعرف عن أحدهم أنَّه كان يعاني من مرضٍ عضالٍ في الصَّدر ، أو البطن ، أو الرأس ، أو الأطراف ، على الرغم من أنَّ جميع الأنبياء لم تكن حياتهم تخلو من وعكات . حتى أيوب عليه السلام لم يكن مرضه سوى امتحاناً لصبره ، وعندما انتهى امتحانه ونجح فيه ؛ شفاه الله من كلِّ ما أصابه ، وعاد سليماً صحيحاً معافى .

كذلك لا يعرف عن نبيٍّ من الأنبياء أنَّه أصابه قراحٌ ، أو جذام ، أو برص ، أو أيُّ مرضٍ جلديٍّ آخر .

وذلك من نعم الله على أنبيائه منذ نوح وحتى محمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين .

* * *

٥ ـ ملاحة وجوه الأنبياء

ربما تختلف مقاييسُ جمال الوجوه بين الشعوب ، لكنَّ جميع هذه الشعوب تتفق على أنَّه في تناسق ملامح الوجه يكمن جمال الوجه الحقيقي ، وهذا ما يعرف بملاحة الوجه .

والحقيقة أنَّ المراجعَ اليهودية تفتقر إلى وصف وجوه الأنبياء ، فقد ورد عن يوسف عليه السلام اعترافٌ له في التوراة بالملاحة ، أو الحُسْن[١] ، كذلك فإنه ورد عن داود أنه كان وسيم المنظر ، واسع العينين[٢] .

أما موسى عليه السلام ؛ فقد ورد وصفه في تلمود اليهود :

« لما بلغ الثالثة من عمره طالت قامته جدَّاً ، وصارت طلعته بهيةً ، وبلغت ذروة الجمال الباهر حتى إذا ما مرَّ في شارع محمولاً على الأذرع ، وقف الناس مبهوتين لشدَّة ما أُخِذُوا به من تأثير جماله ، فلا يعلمون أهم في يقظةٍ ، أم في منام ، حتى يتوارى الطفل العجيب عن الأنظار »[٣] .

أما المراجع المسيحية فتفتقر إلى وصف المسيح ، حيث لم يردْ نصٌّ واحدٌ يصف المسيح عليه السَّلام ، لذلك فإن المسيحيين في العالم قد اختلفوا في صورة المسيح ، فالكنائس الإفريقية تصوِّره أسودَ جعداً ،

---

(١) تكوين (٣٩، ٧).

(٢) صموئيل الأول (١٦، ١٢).

(٣) «لماذا اؤمن» د. قس إبراهيم سعيد ص (٥٦).

والكنائس الغربية تصوره أبيض ، أشقر ، أزرق العينين ، وكنائس شرق آسيا تصوِّره أصفر أملس الشعر ، مبطن العينين ، والكنائس الشرقية تصوره أسمر ، بنيّ العيون ، مستقيم الأنف .

وهنا تبرز معجزة نبوة محمد ﷺ التي تدافع عن الأنبياء الإخوة كافة ، فتُعلِم البشر وحتى أتباع موسى والمسيح عليهما السلام بصفات أنبيائهم ، وذلك ضمن المعجزة الخاصَّة بمحمد ﷺ ، أقصد رحلة الإسراء والمعراج ؛ التي انتقل بها محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم صَعِد عارجاً إلى السماء مرافقاً لجبريل عليه السلام (سنتحدث عن هذه المعجزة لاحقاً) .

وما يهمُّنا هنا أنَّ محمداً ﷺ قد رأى رأي العين في السموات كلاً من آدم ، ويحيى ، والمسيح ، ويوسف ، وإدريس ، (أخنوخ) وهارون ، وموسى ، وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام أجمعين أحياءً يتكلمون ، ويشعرون ، وقد وصف بعضهم قائلاً :

في السماء الأولى قابل آدم ، وطوله ستون ذراعاً[1] .

وفي السماء الثانية قابل يحيى والمسيح عليهما السلام ، وقال واصفاً المسيح عليه السلام : « أما عيسى ابن مريم ، فرجلٌ (له شعرٌ يتجاوز شحمة الأذنين) ، أحمر (أبيض ، ضارب إلى الحمرة) ، بين القصير والطويل ، سبط الشعر ، كثير خِيلان الوجه (له شامات سوداء) ، كأنَّه خرج من ديماس (حمام ، يعني ذا شعر لماع) ، تخال رأسه يقطر ماءً ، وليس به ماء ، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي »[2] .

وفي السماء الثالثة : قابل يوسف عليه السلام ، ووصفه ، فقال :

---

(١) مسلم، الحديث (٢٤٨١).

(٢) سيرة ابن هشام ج٢، ص٤٤.

« فإذا رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر ، قلت : من هذا يا جبريل ؟! قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب »[1] .

وفي السماء الرابعة قابل إدريس ، ولم يرد في الحديث وصفٌ له .

وفي السماء الخامسة قابل هارون عليه السلام فوصفه قائلاً : « فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية ، عظيم العُثْنونِ (اللحية) ، لم أر كهلاً أجمل منه »[2] .

وفي السماء السادسة قابل موسى عليه السلام وتحدَّث معه حديثاً ذكره ، ثم وصفه قائلاً : « آدم ، طويلٌ ضَرْبٌ (خفيف اللحم) ، جعد (متكسر الشعر متعرجه) ، أقنى (مرتفع قصبة الأنف) ، كأنَّه من رجال شنوءة »[3] .

وفي السماء السابعة شاهد إبراهيم عليه السَّلام ، وهو يشبه تماماً محمداً ﷺ الذي وصفه الكثير من أصحابه ، ونورد هنا أكملَ وصفٍ له على لسان ابن عمِّه عليِّ بن أبي طالب ؛ الذي وصفه قائلاً : « لم يكن بالطويل الممغَّط (الممدود) ، ولا القصير المتردِّد (القصير) ، وكان ربعة في قومه (مربوع) ، ولم يكن بالجعد القطط (المتلفلف على بعضه) ولا السَّبط (الأملس الرهيف) ، كان جعداً رَجِلاً (إذا سرح شعره تموج) ، ولم يكن بالمطهَّم (ضخم الجثَّة) ولا المكلثم (الصغير الوجه) ، وكان أبيض مُشْرباً (بياض مائل إلى الحمرة) ، أدعج العينين (أسود العينين) ، أهدب الأشفار (شفاهه ليست ملساء ولا سميكة متدلية) ، جليل المُشاش (عريض العظام) والكتِد (ما بين الكتفين) ،

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ، ص. ٤٩

(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ، ص. ٤٩

(٣) سيرة ابن هشام ج٢ ، ص. ٤٤

دقيق المسربة (شعر صدره ليس بكثيف) ، أجرد ، شثن الكفّين (كفّاه ممتلئتان مع قلّة شعر على ظاهر كفيه) »[1] .

وقال جابر بن سمرة يصف شكل فم وعيون محمد ﷺ :

« كان ﷺ ضليع الفم أشكل العين ، منهوس العقبين » ، وضليع الفم هو صفة يُمتدح بها الفم عندما يكون جميلاً ، حيث يكون كبيراً مع جماله ، وأما أشكل العين ، فتعني : أنَّه كان واسع شق العين ، وأما منهوس العقبين فيعني : قليل شحم البدن[2] .

وقال أبو طفيل يصف وجه رسول الله ﷺ :

« كان أبيض مليحاً مُقصَّداً » يعني : وجهه أبيض ، متناسق الملامح ، وشكل رأسه متناسق[3] .

وقال البراء يصف شعر رسول الله ﷺ :

« كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً (تناسق الجسم مع الوزن) بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمة (الشعر) إلى شحمة أذنيه ، عليه حلَّةٌ حمراء (حلة شقراء) ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ﷺ » .

وهكذا يتبين لنا أنَّ الأنبياء جميعهم كانوا على قدر من ملاحة الوجه بشهادة من محمد ﷺ ، ولعلَّ ملاحة الوجه من الأمور التي تستميل القلوب إلى سماع أقوال أصحابها .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢، ص. ٤٤

(٢) مسلم، حديث رقم (٢٣٣٩).

(٣) مسلم، حديث رقم (٢٣٤٠).

٦ـ اكتمال الشكل العام للأنبياء

لاحظنا من خلال البحث في سلامة عقول ، وحواس ، وأعضاء الأنبياء أنَّ هذا الكمال لا يكون كمالاً إلا إذا تناسقت الأعضاء مع بعضها ، بحيث تؤدّي إلى تبيان ملاحة الأجسام بالإضافة إلى ملاحة الوجوه ، وسلامة العقل .

فلم يعرف عن الأنبياء جميعهم أنَّ أحداً منهم كان طويلاً للحدِّ المكروه في قومه ، ولا قصيراً إلى الحدِّ الغير مرغوب في قومه .

ولم يكن أحدٌ من الأنبياء قزماً ، أو طويل الذراعين إلى الحدِّ الزائد ، أو قصِيرهما إلى الحدِّ الناقص ، وكذلك الأرجل .

كما لم يعرف عن نبيٍّ من الأنبياء عرجاً ، أو أن له يداً طبيعيةً ، وأخرى غير ذلك ، وبذلك تكتمل أجسام الأنبياء ؛ ليكونوا لائقين بشرف النبوة ، ذلك الشرف الذي أعدَّه الله لهم .

* * *

٧ـ سمو أخلاق الأنبياء قبل النبوّة

ربما اختلفت المجتمعات البشرية في تعريف الأخلاق ، ومع ذلك فليس هناك خلاف بين جميع المجتمعات الإنسانية على مظاهر هذه الأخلاق .

فمن مظاهر الأخلاق : الصدق ، والإخلاص ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإكرام الضيف ، والشجاعة ، والعفّة ، وبرُّ الوالدين ، وتأدية الأمانة .

ومهما بحثت في الأخلاق فإنّك لا تجد عند نبيٍّ من الأنبياء خرقاً لهذه القواعد الأخلاقية ؛ ابتداءً من آدم عليه السلام ، وانتهاءً بمحمَّد ﷺ .

ومن القصص المعروفة أنَّ إبراهيم عليه السلام لما جاءته الملائكة لتبشِّره بأن زوجته العاقر العجوز ستحمل منه ولداً ، سيسميه إسحاق ، وسيرزق إسحاق بولدٍ بعده يسمى يعقوب ، وستبقى سارة حيَّة حتى ترى يعقوب ؛ ظنَّ إبراهيم عليه السلام : أنَّ الملائكة ضيوف بشريون ، فقدَّم لهم وحسب التوراة ما يلي :

« أخذ زبدةً ولبناً والعجل الذي هيَّأه ، فوضع هذا كلَّه أمامهم »[1] .

وهذا إنَّما يدلُّ على كرم إبراهيم عليه السلام ، وحبِّه للضيوف ، وإكرامه لهم .

كذلك فإنَّ موسى عليه السلام بلغ من نصرة المظلوم حدّاً أنَّه قتل

---

(١) التكوين (١٨ ، ٨).

النفس التي حرَّم الله قتلها في شريعة بني إسرائيل الأساسية ، حيث قتل المصري الذي كان يضرب واحداً من بني إسرائيل[١] .

وقد كان يحيى (يوحنا المعمدان) يدعو النَّاس إلى الإيثار والكرم[٢] كما أنَّ المسيح عليه السلام كان مشهوداً له ببرِّ الوالدين[٣] .

كذلك فإنَّ محمداً ﷺ كان مشهوداً له بمكارم الأخلاق قبل بعثته ، ومن الشهادات المقدَّمة لذلك شهادة زوجته خديجة بنت خويلد ؛ التي قالت له فيها : « . . . فوالله لا يخزيك الله أبداً! والله إنَّك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلَّ ، (اليتيم) وتكسب المعدوم (تمنح المال) وتقري الضيف (تكرم الضيف) وتعين على نوائب الحق (الحوادث القاسية على أصحابها) . . . »[٤] .

كذلك شهادة النضر بن الحارث أمام وجهاء قريش ، والذي مات كافراً ، ولم يؤمن بنبوة محمدٍ ﷺ :

« يا معشر قريش : إنَّه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلةٍ بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة[٥] . . . . » .

ولقد كان محمدٌ ﷺ قبل بعثته معروفاً بالأمين ، حيث كان أهل مكة كلهم يلقبونه بالأمين .

وكانت الكعبة بناءً قديماً بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السَّلام ،

---

(١) الخروج (٢، ١١).
(٢) لوقا (٣، ١٠ـ ١١).
(٣) لوقا (٢، ٥١).
(٤) مسلم من حديث رقم (١٦٠).
(٥) سيرة ابن هشام (ج١ ص٢١٨).

ولأسبابٍ كثيرةٍ أصبحت الكعبة خربة تستوجب إعادة بنائها ، واتفقت قريش كلُّها على إعادة بنائها ، ولما وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلفت بطونُ قريش على من يضع هذا الحجر في مكانه ، حيث كان وضع هذا الحجر شرفاً ومفخرةً لمن يضعه في موضعه . واختلفت العائلات القرشية على من يضع هذا الحجر الأسود في مكانه ، حتى وصل بهم الأمر إلى حدِّ الحرب ، والاقتتال ، وبقوا على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً .

لكن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذٍ أسنَّ (أكبرهم سناً) قريشٍ كلِّها قال :

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم (حكَّموا بينكم) فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أولَ داخلٍ عليهم رسولُ الله محمد ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم (وصل لجمعهم) وأخبروه الخبر ، قال : « هلمَّ إليَّ ثوباً » فأتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كلُّ قبيلةٍ بناحية الثوب ، ثم ارفعوا جميعاً » ففعلوا . حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه »[1] .

* * *

(١) سيرة ابن هشام (ج١ ص١٤٦).

٨ ـ سلامة وطهارة نسب الأنبياء

وُلد محمدٌ ﷺ في الجزيرة العربية التي تقطنها قبائل عربية ، تعود في نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السَّلام .

كذلك فإنَّ مكة تسكنها قريش القبيلة العربية التي تعود في نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ومن الثابت أنَّ جميع أبناء قريش كانوا ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

إذاً ليس من المستغرب بين أفراد قبيلة قريش أن يكون أحد مواليدها منسوباً إلى إسماعيل بن إبراهيم .

لقد كانت قريش تعرف نسب محمد ﷺ معرفة دقيقة ، فهم يرفعون نسبه إلى عشرين جدَّاً من جهة الأب ، وإلى عشرين جدَّاً من جهة الأم تقريباً .

فقد عرفوا : أنَّه « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (شيبة) بن هاشم بن عبد مناف (المغيرة) بن قصي (زيد) بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان »[١] .

وقد عرفوا أيضاً أنه « محمد بن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان »[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام (ج١ ، ص١).

(٢) سيرة ابن هشام (ج١ ، ص٨٥).

والشيء المهمُّ في أنساب محمد ﷺ أنَّه انحدر في الأصلاب الطاهرة جيلاً بعد جيل ، فليس هناك شيء يشين بنسبه الشريف لا من جهة الأب ولا من جهة الأم ، فجميعهم لم ينحدروا من زواجٍ غير معترفٍ به ، كزنى المحارم ، أو السفاح ، أو الاستبضاع ، أو الزنى ، أو أيِّ شكلٍ من أشكال التزاوج غير المباح وغير المعترف به في عصورهم ، وأزمانهم .

كما لم يعرف في واحدٍ من أجداده أنَّه نتج عن أمٍّ كانت جاريةً ، أو سبية ، أو أمة ، فجميع الأمهات كانوا من أبناء السَّادة حرَّاتٍ ، عفيفاتٍ ، شريفاتٍ .

وربما ظنَّ البعض أنَّ هذا النسب ثبِّت ، ودوّن لأنَّ صاحبه محمد ﷺ ، والحقيقة أنَّ كلَّ عربيٍّ كان يعرف نسبه حتى الجد العشرين ، وليس ذلك فحسب ، بل يستطيع أن يسلسل نسب من يهتمُّ به من أحلافه ، أو من أعدائه ، فيعرف الأول للافتخار ، ويعرف الثاني لينال من نسب عدوِّه .

وهنا تبرز حقيقةٌ مفادها أنَّ أعداء محمدٍ ﷺ ما كان شيءٌ ليسعدهم أكثر من وجود شيءٍ قابلٍ للطعن في نسب محمَّد ﷺ ، وطبعاً هذا لم يكن ليتحقَّق ؛ لأن أنساب الأنبياء منيعة عن الطعن .

وبالطبع فإنَّ الطعن في النسب يعتبر عيباً في أنساب الأشخاص حتى في أشدِّ المجتمعات انحلالاً ، فكيف تقبل المجتمعات أن يكون أنبياؤهم مطعوناً في أنسابهم دون أن يبحثوا ويستقصوا عن الحقائق لتبرئة أنبيائهم ؟

والشيء الرَّهيب أن تكون الطعون في أنساب الأنبياء مدونةً في الكتب التي يعتبرونها مقدَّسة ، فيؤمن بها أتباعها على أنَّها مسلماتٌ إيمانية غير قابلة للنقاش .

ومن الأنساب المشينة التي وردت في العهد القديم :

١ـ نسب إسحاق عليه السلام :

إسحاق هو ابن إبراهيم ، أمُّه سارة ، وسارة هي بنت هاران بن تارح والد إبراهيم ، وبالتالي فإنَّ إبراهيم تزوَّج ابنة أخيه هاران والد لوط[١] ، وبهذا النصِّ يكون إبراهيم قد تزوَّج ابنة أخيه ، يعني : أن العم تزوَّج ابنة أخيه!!!

وفي سفر التكوين نفسه عُدِل نسب سارة إلى إبراهيم ، فأصبحت أخته من أبيه ، وقد ورد النصُّ على لسان إبراهيم حيث قال : « بالحقيقة هي أختي ابنة أبي لا ابنة أمي . فصارت امرأةً لي »[٢] .

في كلتا الروايتين فإنَّ إسحاق ناتجٌ عن زنى محارم ، سواء كانت سارة بنت أخ لإبراهيم ، أو أخته!!! .

وهذا لا يمكن قبوله لتناقضه مع طهارة نسب الأنبياء .

٢ـ نسب موسى عليه السَّلام :

تقول التوراة في سفر الخروج (٦ ، ٢٠) : « تزوج عمرام يوكابد عمته ، فولدت له هارون ، وموسى ، وعاش عمرام مئةً وسبعاً وثلاثين سنةً » .

وهكذا يكون موسى وهارون ناتجين عن زنى محارم بين امرأة وابن أخيها ، وهذا محرَّم في شريعة يعقوب ، حيث إنَّ يعقوب علَّمهم المحرمات[٣] ، وهذا لا يمكن قبوله لتناقضه مع طهارة نسب الأنبياء .

---

(١) تكوين (١١ ، ٢٧ـ ٣١).
(٢) تكوين (٢٠ ، ١٢).
(٣) تكوين (٣٩ ، ١١).

٣ـ نسب سليمان بن داود عليهما السلام :

جاء في العهد القديم « عند المساء قام داود عن سريره ، وتمشى على سطح القصر ، فرأى على السطح امرأة تستحمُّ ، وكانت جميلة جداً ، فسأل عنها ، فقيل له : « هذه بتشايع بنت اليعام »[١] ، زوجة أوريا الحثي . فأرسل إليها رسلاً عادوا بها ، وكانت اغتسلت وتطهَّرت ، فدخل عليها ونام معها ، ثم رجعت إلى بيتها . وحين أحست أنّها حبلى أعلمته بذلك »[٢] .

بهذه الطريقة ولد سليمان لداود من امرأة متزوجةٍ من رجل آخر ، وبذلك يكون سليمان ابن زنى ، ويكون داود خالف الوصايا العشرة مرَّتين مرَّة بالزنى ومرَّة أنَّه اشتهى زوجة غيره ، وبالتالي فإنَّ عقوبته الرجم حتى الموت حسب شريعة موسى[٣] .

وبناءً عليه فإنَّ سليمان لا يحقَّ له أن يكون من جماعة المؤمنين بالربِّ حسب التثنية (٢٣ ، ٣) وهي من تعاليم موسى عليه السَّلام .

وهكذا وقع كتاب العهد القديم في الخطأ الكبير ، حيث لا يليق بنبيٍّ من الأنبياء أن يكون في نسبه ما يشينه .

وبالطريقة نفسها وقع العهد الجديد في أخطاء العهد القديم ، فنسب إلى الأنبياء ما لا يليق بهم :

حيث يورد إنجيل مرقص (١ ، ١) ولوقا (١ ، ٣٢) ويوحنا (١ ، ١٤) أنَّ المسيح « ابن الله » لأنَّ مريم أمَّه حملته بمعجزة من الله ،

---

(١) تكوين (٤٩، ٤).
(٢) صموئيل الثاني (١١، ٢ـ٥).
(٣) تثنية (٢٢، ٢١ و٢٢).

إذاً فإن المسيح ليس له أبٌ بشريٌّ قطعاً ، ومع ذلك أصرت الأناجيل أن أباه يوسف النجار .

فأورد لوقا شجرة نسب المسيح كما فعل متى ، لكنَّ هاتين الشجرتين مختلفتان من حيث عدد الأجداد وأسماء الكثير من الأجداد ، وعلى الرغم من أنَّ متى ، ولوقا قد أوردا نسبين مختلفين ليوسف النَّجار ؛ إلا أنَّهما أصرَّا على أنَّ نسب يوسف النَّجار هو نسب المسيح نفسه ! !

وإذا كان مقبولاً انحدار نسب المسيح عليه السلام من سليمان ، وداود ، وموسى ، وإبراهيم فإنَّ ذلك يكون مقبولاً عن طريق مريم التي ولدته ، والتي كان من المفروض أن تذكر الأناجيل نسبها ، وليس نسب يوسف النجار الذي ليس له علاقة ولا مساهمة في ولادة المسيح عليه السَّلام .

إنَّ شجرتي نسب لوقا ومتَّى اللتين أورداهما في إنجيليهما ليستا مقبولتين ؛ لأنَّهما لا تنسبان المسيح إلى أمه الحقيقية ، بل إلى أبيه بالتبنِّي ، ناهيك عن اختلافهما في أسماء وأعداد الأجداد .

وهناك جدٌّ من الأجداد الذي اتفقت عليه شجرتا النسب عند لوقا ومتى ، وهو (فارص) يجعل المسيح عليه السلام مطعوناً في نسبه ، ملعوناً عند اليهود .

وذلك أنَّ (فارص) وتارح هما ولدان غير شرعيين ليهوذا بن يعقوب ؛ الذي يذكر عنه سفر التكوين أنَّه زنى بزوجة ابنه (ثامار زوجة عير بن يهوذا) فولدت له زارح وأخاه (فارص) الذي هو الجد الأعلى للمسيح[1] ، وبذلك يكون (فارص) ـ وهو جدُّ المسيح عليه السَّلام ـ ابن زنى وأي زنى ؟ ! إنَّه أشنع أنواع الزنى ، ألا وهو زنى المحارم .

---

(١) تكوين (٣٨، ٢٤ـ٢٦).

بالإضافة إلى ذلك ، فإنَّ الشريعة اليهودية التي ترفض إدخال نسل ابن الزنى إلى الأبد في جماعة الرب ، حسب سفر التثنية (٢٣ ، ٣) ، فإنَّ المسيح عليه السلام ليس مقبول الإيمان عند اليهود .

وبالطبع ما كانت هذه الحقائق لتخفى على بني إسرائيل ، وهم علماء في كتبهم المتوارثة ، وإلا لكان الفريسيون أشدَّ الناس إعلاناً لهذه الحقائق للتشهير بالمسيح عليه السلام .

وعلى الرغم من أنَّ أعداء المسيح عليه السلام ما كان يمنعهم عن اتِّهام المسيح عليه السلام شيء ، فقد وصفوه بالساحر تارةً ، وبرئيس الشياطين تارةً أخرى .

لكنهم لم يجرؤوا أبداً على الطعن في نسبه ، لأنَّهم ساعتها سيتعرضون للتكذيب من عشيرة المسيح عليه السلام ؛ الذين كانوا يسكنون الناصرة ؛ لأنَّ نسب مريم كان شريفاً طاهراً ، وهذا معروفٌ لديهم .

بناء على ذلك فإنَّه لا يمكن قبول شجرتي نسب المسيح عليه السلام لعلّة عدم المنطقية ، وعدم الواقعية ، ولطعن هاتين الشجرتين في نسب المسيح عليه السلام ؛ لكونهما تجعلانه حفيداً غير شرعيٍّ ، وهذا مالا يليق بشخصيته ، ولا نسبه .

فإذا كان الفردُ السويُّ من البشر لا يقبلُ أن يُوصف بأنَّه (ابن زنى) فكيف يمكن أن يقبل ذلك الشخص أنَّ الأنبياء يمكن أن يكونوا أبناء زنى ؟!

خلاصة القول : لا يمكن أن يكون في نسب أيِّ نبيٍّ جدٌّ من أجداده مطعونٌ في شرعية زواجه ، أو ولادته .

* * *

٩ ـ عدم ميل الأنبياء إلى الشرك ، وابتعادهم عنه قبل نبوَّتهم

على الرغم من أنَّ الأنبياء قبل نبوَّتهم كان لا يأتيهم الوحي ، إلا أن واحداً منهم لم يعرف عنه أنه عبدَ أحداً غير الله ، ولا سجد لأحدٍ غير الله ، ولا أُعجب أبداً بوثنٍ ، أو صنمٍ ، أو زلمٍ .

كذلك لم يعرف عن أحدٍ منهم أنَّه صادقَ ساحراً ، أو كاهناً ، أو عرّافاً ، أو دجَّالاً ، بل عرف عنهم أنهم ابتعدوا عن ممارسات أقوامهم الوثنية الضالة من سجودٍ ، وذبائح ، وتطيُّر ، وكهانة ، وعرافة .

ولا تجد في العهد القديم أو الجديد ما يشير إلى أنَّ واحداً من الأنبياء مارس أيَّ عملٍ يدلُّ على أنَّه عامل مظاهر الشرك باحترامٍ ، أو تقديسٍ .

كذلك فإنَّ محمداً ﷺ ترك جميع ممارسات عشيرته الوثنية ، ومال إلى الانعزال ، والتأمُّل ، وعبادة الله حسبَ ما رآه هو أقرب إلى المعقول .

فقبل نبوَّته وجد نفسه ميَّالاً إلى العزلة ، فكان يذهب إلى كهفٍ من كهوف الجبال المحيطة بمكة ، وكان ذلك في غار (كهف) حِراء ، وهو غار واقعٌ على بعد ثلاثة أميال على يسار الذاهب إلى مكة ، فيتعبد فيه (يتحنث) تأملاً للكون ، ودعاءً لله الواحد ، وسجوداً له ، وكان يفعل ذلك أياماً محددة من الشهر ، ثم يعود إلى أهله ، ليتزوَّد بالطعام والشراب الكافي لفترة تعبُّده القادمة .

وقد « حُبِّبَ إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حِرَاء ، يتحنث فيه (وهو التعبُّد) الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزوَّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها . . . »[1] .

ولم يُعرفْ عن محمد ﷺ أنَّه سجد لصنم من أصنام مكة البالغة ثلاثمئة وأكثر ، كما لم يذبح لها ، وكان يبتعد عن الكهَّان ، والعرَّافين ، ولا يمارس الميسر ، ولا يرتاد دور اللهو التي كانت تستهوي شباب مكة .

وربما لاحظنا : أنّ هذا الابتعاد ليس وليد مصادفة ؛ بل هو دليلُ اختيار من الله لأنبيائه ، حتى إذا جاءت النبوَّة لأحدهم خرست أفواه قومه ، فلا يستطيعون أن يعتبروه مرتدّاً عن عبادة أوثانهم .

* * *

(١) مسلم من الحديث رقم . ١٦٠

١٠ـ جهل الأنبياء بالمعارف البارزة في عصورهم قبل نبوَّتهم

تُجمع الكتب السماوية الثلاثة أنَّ الأنبياء جميعهم لم يكونوا يمارسون السِّحر ، ولا يعرفون شيئاً عنه ، ولم يمارسوا الكهانة ، ولا يعرفون شيئاً عنها ، كما أنَّهم لم يمارسوا الشعوذة ولا يعرفون شيئاً عنها ، وليس لهم أيُّ ارتباطٍ ، أو علاقة مع الجنِّ . . . إلخ .

ويبدو أنَّ السحر والكهانة والشعوذة ممارساتٌ مستحبة لدى النفس البشرية ، حيث إنَّها تعالج مواضيع غيبية ، ومستقبلية وغير مرئية يخاف منها الإنسان ، فيلجأ إلى من يطمئنه على مستقبله ، وعلاقته بالعالم غير المرئي له .

ويبدو لنا أنَّ جهل الأنبياء بهذه الأمور ضروريٌّ ، وذلك لأنَّ المعجزات التي سيؤيد بها الله الأنبياء بعد ظهور نبوَّتهم أمور خارقة لقدرات البشر ، وبالتالي فإنَّ الناس سوف يفهمون المعجزات على أنَّها أشكالٌ مختلفة للسِّحر ، ويفهمون أنَّ الاطلاع على حوادث المستقبل عرافةٌ ، ويفهمون دعوة الأنبياء إلى الإيمان بنبوتهم كهانة ، وهكذا .

وعلى الرغم من أنَّ الأنبياء قبل نبوتهم لم يمارسوا أبداً سحراً ، ولا كهانةً ، ولا عرافةً ، ولا شعوذةً ، إلا أنَّ ذلك لم يمنع أعداءهم من اتهامهم بالسحر ، أو الكهانة ، أو ممارسة الشعوذة .

لقد أنكر فرعون معجزة موسى عليه السلام فحشر له المنجمين ،

والعرافين ، وهم سحرة مصر[1] ، ومن الغريب أن يقع كتبةُ التوراة بهذا الخطأ ، حيث إنَّهم وصفوا عصا موسى عليه السلام بأنَّها سحرية « عصا الله السحرية بيده »[2] .

كذلك فإنَّ الفريسيين المعادين للمسيح لم يمنعهم عدم تعامل المسيح عليه السلام قبل رسالته مع الجنِّ والشياطين من أن يتَّهموه بتعامله مع الجنِّ والشياطين ؛ عندما رأوا المسيح عليه السلام يشفي أخرسَ ، كان قد مسَّه الشيطان ، فقالوا : « رئيس الشياطين يطرد الشياطين! »[3] .

وكذلك فإنَّ من أظهروا العداوة لنبوة محمد ﷺ عملوا على إطلاق التُّهم على محمد ﷺ بعد ظهور نبوَّته ، فلم يتركوا تهمةً شائنةً إلا وألصقوها بمحمَّدٍ ﷺ ، فقد نعتوه بالمجنون ، والساحر ، والكاهن ، والكذَّاب ، والكافر .

وعلى الرغم من أنَّ الله تعالى أنزل في كتابه العزيز الآيات التي تدافع ، وتشهد ، وتنفي جميع التُّهم التي ألصقها الأعداء بشخص محمد ﷺ ، وشهد له أتباعه بها ، وستشهد له الأمم بالتوالي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وعلى الرغم من ذلك فإنَّ عدواً من أعداء محمد ﷺ وهو النضر بن الحارث ، والذي مات مشركاً دون أن يؤمن بنبوَّة محمد ﷺ ، شهد بأن جميعَ التُّهم التي ألصقها المشركون لمحمد ﷺ هي محض افتراء ، ولا يمكن لعاقلٍ أن يقبلها ، فقال : « يا معشر قريش! إنَّه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلةٍ بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم

---

(١) الخروج (٧، ١١).
(٢) الخروج (٤، ٢٠).
(٣) متَّى (٩، ٣٤).

فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر! لقد رأينا السَّحرة ونفثهم وعقدهم .

وقلتم : كاهن (العرب تقول لخادم الصنم كاهن ، ويعتبرونه وساطة بين الناس والصنم) ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم .

وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر! قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلَّها : هزجه ورجزه .

وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون! لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه يا معشر قريش! فانظروا في شأنكم ، فإنَّه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم! »[1] .

لقد كانت بعضُ المعارف والفنون مثاراً لإعجاب العرب ما قبل عصر نبوة محمد ﷺ ، فلقد كان العرب يحبُّون الشعر لدرجة أنَّهم علَّقوا على أستار الكعبة المقدَّسة لهم سبع قصائد قالها سبعة شعراء ، شهد لهم العرب بالنبوغ في هذا المجال ، ويُجهد العربيُّ نفسه في سبيل أن يحفظ الشعر إذا لم تكن لديه موهبة الحفظ ، ناهيك عن أنَّ هناك أشخاصاً يرتحلون بين القبائل يحفظون ، وينقلون أشعار غيرهم إلى تلك القبائل .

فإذا علمت أنَّ العرب جعلت سوق عكاظ في كلِّ عام موعداً لتبادل القصائد الشعرية ؛ عرفت أنَّ العرب تقدِّس الشعر ؛ لأنَّ سوق عكاظ يترافق مع موسم الحجِّ إلى مكة عادة ، والذي لا يمتنع عنه أحدٌ إلا لأسباب قاهرةٍ خارجةٍ عن إرادته .

---

(١) سيرة ابن هشام (ج١ ، ص٢١٩).

على الرَّغم من ذلك فإنَّ محمداً ﷺ لم يقل شعراً ، ولم يروه ، ولا حاول حفظ شيءٍ منه أبداً .

كذلك فإنَّ العرب كانت تهتمُّ بأنساب العرب ، وتفرّعات قباتلهم ، وصفاتهم الشكلية ؛ لدرجة أنَّ العرب أبدعوا علماً خاصاً بهم هو علم « الفراسة » حيث كان « النسَّابة » يعرف انتماء الفرد وأصله وانتسابه لأبيه من خلال مقاطع الوجه ، وملامحه .

وقد كان أكثر الناس شهرةً بهذه المعرفة من أطلقوا عليه : نسابة قريش ، وهو أبو بكر الصديق[1] ، وطبعاً لم يكن محمدٌ ﷺ من هؤلاء قبل نبوَّته .

أيضاً هناك معرفة الاستدلال على الأمور بآثارها ، وهو ما كان يعرف بـ « القيافة » ، ومن المشهورين بذلك مالك بن جعشم ، وكذلك عبد الله بن أريقط ، وهما من بني مدلج ، كذلك فإنَّ محمداً ﷺ لم يكن أبداً مقتفياً للآثار بحال من الأحوال .

كذلك فقد كان من معارف العرب أن يستدلوا على هطول الأمطار من خلال الريح والأنواء واتجاه السحاب ، وأيضاً لم يكن محمداً ﷺ يعلم شيئاً عن مثل هذا الاستدلال .

وخلاصةُ القول : إنَّ جميع الأنبياء قبل ظهور نبوَّتهم كانوا أناساً عاديين في مجتمعاتهم ، يأخذون من المعارف ما تيسَّر لهم دون جهدٍ ، ولا قصدٍ ، وبذلك تكون معارفهم مساويةً لمعارف غيرهم من أبناء قومهم ، ولكن شرط ألا يصل إلى حدِّ الشُّهرة بأيِّ معرفةٍ من المعارف .

* * *

---

(١) مسلم (٢٤٩٠).

١١ـ مقدرة عقول الأنبياء
على استقبال خبر نبوَّتهم

ربما ظن البعض أنَّ استقبال النبوَّة أمرٌ عاديٌّ ، يستطيع أيُّ إنسانٍ احتماله « أعني باستقبال النبوَّة : تلك اللحظة التي يُعْلِمُ بها الله تعالى اختياره لهذا النبيِّ أو ذاك » .

والحقيقة غير ذلك تماماً ، حيث إنَّ استقبال التكليف بالنبوَّة أمرٌ لا يحتمله عقل أيِّ كائنٍ من البشر ، مهما بلغت مقدرته على تمالك مكوِّنات نفسه ، وجسمه ، وعقله .

ولكي نستطيع استيعاب هذه الفكرة ؛ لابدَّ لنا أن نتخيل تلك اللحظات التي تعرض فيها موسى عليه السلام لحادثة النبوَّة :

فعندما انطلق موسى عليه السلام وزوجته عائداً إلى مصر عبر الصحراء تاه موسى عليه السلام عند مفترق طرقٍ ؛ في الوقت الذي حلكت فيه الظلمة ، في ليلةٍ ليس فيها قمر ولا ضياء ، وحانت من موسى عليه السلام التفاتة جعلته يدرك أنَّ ناراً يمكن الوصول إليها تضيء في مكانٍ قريبٍ .

ترك موسى عليه السلام زوجته في مكانها خشية أن يضيع عن مفترق الطرق ، وقال لزوجته : إنَّ هذه النار التي رأيناها ما هي إلا دليلاً على وجود أشخاصٍ بالقرب منها قد أوقدوها لسببٍ ، أو لآخر ، فاقعدي حتى أجلب شيئاً من النار للتدفئة ، أو أسأل عن الطريق الصحيحة المؤدية إلى مصر .

قال الله تعالى في قرآنه الكريم :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ـ ١٠] .

وتوجَّه موسى إلى النار وعيونه محدقةٌ فيها أملاً أن يشاهد الخيمة التي يأوي إليها الأشخاص الذين أشعلوا النار ، أو الأغنام التي أشعل لها الرعاة النار بالقرب منها لإخافة وحوش الصحراء .

واقترب موسى عليه السلام إلى الحدِّ الذي تبيَّن معه تماماً أنَّه ليس هناك بشر ، ولا أغنام ، عند ذلك أصبح موسى عليه السلام يدور في رأسه سؤالٌ واحدٌ : من الذي أشعل النار إذاً ؟ ؟ في هذه اللحظة سمع صوتاً يقول له : يا موسى!

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ [طه : ١١] .

تلفَّت موسى عليه السلام خلفه ، فلم يجد أحداً (فلو وضعت نفسك بدلاً منه ؛ لسألت نفسك سؤالاً واحداً : من يقول هذا الكلام ولا أراه ؟ ومن يستطيع أن يعرف اسمي في هذه الصحراء الموحشة ؟ عندها سوف تجد في نفسك إجابة واحدةً : إنه جنِّيٌّ !) .

وهنا يصل الرعب إلى أقصى درجات الإحساس به ، ومع ذلك تماسك موسى ، لكنَّه لم يجب ، ولم ينبس ببنت شفة ؛ لشدَّة الخوف الذي اعتراه ، عند ذلك أجابه الله تعالى :

﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] .

عند ذلك خفَّف اللهُ تعالى من حالة الرُّعب التي أصابته ، وشرح له قصة النار التي شاهدها ، فقال : ﴿ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل : ٨ـ ٩] .

تمالك موسى عليه نفسه عندما أنزل الله تعالى سكينته عليه ، لكنه بقي

صامتاً لا يتكلم ، لكن الله تعالى جعله يستأنس عندما حاوره ، فقال تعالى له :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٧ـ ٢١] .

ألقى موسى عليه السلام عصاه إلى الأرض فخاف خوفاً شديداً ، فاستدار راكضاً ، وظلَّ يركض حتى ناداه الله تعالى وقال له : إنَّ الأنبياء لا يخافون ، لأني أنا الذي أرسلتهم ، وأنا أتولى حمايتهم ، قال تعالى :

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : ١٠] .

رجع موسى عليه السلام إلى مكانه ، عندما علم أنَّ الله عاصمه من كل شيء ، ومدَّ يده فتلقى ذيل الأفعى فعادت عصا كما كانت ، فقال له الله : أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء فتعود إلى حالتها الطبيعية عند إدخالها في جيبك مرة أخرى ، عندها فعل موسى ما أمره الله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [النمل : ١٢] .

وذهب الروع تماماً عن موسى عليه السلام ، وأخبره الله تعالى بأنَّه سيؤيده بتسع معجزاتٍ إضافية ؛ لتكون دليلاً على نبوَّته أمام فرعون وبني إسرائيل ، عند ذلك انطلق لسان موسى عليه السلام ، وأخذ يسأل ربَّه ما شاء الله أن يسأل .

وقد اعتمدنا آنفاً الرواية القرآنية لمشهد الإخبار بالنبوَّة عند موسى عليه السلام ، وهي رواية توضح تماماً حقيقة ما نروي ، على الرَّغم من أنَّ الرواية القرآنية لا تتعارض بشكل كبيرٍ مع الرواية التوراتية لهذا المشهد الرَّهيب .

كذلك فإنَّ مشهد الإخبار بالنبوَّة عند محمد ﷺ لا يقلُّ رهبةً عن رهبة المشهد عند موسى عليه السلام ، إلا أنَّ المشهد عند محمَّد ﷺ محدَّد المكان تماماً ؛ ومحدَّد الزمان بدقَّةٍ متناهيةٍ .

وكنا قد أشرنا إلى أنَّ محمداً ﷺ حُبِّب إليه العزلة في غار حراء ، وهو عبارة عن غارٍ أو كهفٍ في جبل من جبال مكة ، يبعد ثلاثة أميال على يسار الذاهب إلى مكة ، وهو كهف معروفٌ حتى يومنا هذا .

في هذا الغار كان محمد ﷺ يتأمل في الكون ، ويدعو الله ، ويسجد له ، مبتعداً عن ممارسات الشرك التي يمارسها قومه ، كما عرف ذلك عن المسيح عليه السلام أيضاً[1] ، وفي ليلة مباركة من شهر رمضان وفي السابع عشر من ذلك الشهر والموافق لسنة (٦١٠) ميلادية في السادس من آب (أغسطس)[2] .

في ذلك اليوم كان محمدٌ ﷺ قد تعبد فيه إلى أن انتهى الزاد الذي معه ، وفي تلك الليلة نام في ثوب كبير من الصوف كان يستخدم لطرحه على هودج الجمل ، نام وفي نيته النزول في صباح اليوم التالي .

في ذلك الثوب الذي يستخدم فراشاً وغطاءً ـ والذي يسمى (نمطاً) ـ نام محمد ﷺ ، واستغرق في نومه في ذلك الكهف .

استيقظ محمد ﷺ وهو مشدودٌ إلى صدر سائلٍ يضمُّه إلى صدره ، وهو يقول : اقرأ (يمكنك أن تتخيل ردود فعل الإنسان في حالة مثل هذه!!!) .

« قال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء! قال : فأخذني فغطني (ضمَّني)

---

(١) لوقا (٥، ١٧).

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية (ج١ ، ص٦٩).

حتى بلغ مني الجهد (المشقّة) ، ثم أرسلني (تركني) فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أنا بقارىء (لا أعرف القراءة) قال : فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ »[1] . [العلق : ١ـ٥] .

ذهب السائلُ ومحمد ﷺ قد حفظ ما قال السائل ، لكنه لا يدري من هذا السائل ، وما صفته ، ولا ملامحه ، ولا نوعه ، هل هو من الإنس ، أم من الجن ؟

ووسط حالة الخوف الشديد وجد نفسه يقوم من فراشه خائفاً مدفوعاً للرجوع إلى مكة ، وعندها بزغ الفجر ، ولما وصل إلى منتصف الجبل سمع صوتاً من السماء يقول : يا محمد! أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

توقف رسولُ الله مُتبيِّناً مصدر الصوت في السماء ، فإذا بالسائل يضع رجليه عند خطِّ الأفق ، وعاد ليقول : يا محمد! أنت رسول الله ، وأنا جبريل .

انتاب رسولَ الله حالةٌ من الخوف والدهشة ، جعلته لا يستطيع أن يتقدَّم ولا يتأخر عن موقعه ، وفي محاولة منه للتغلب على تلك الحالة أخذ يصرف وجهه إلى جهةٍ أخرى من السماء فإذا بالسائل يقف في كلِّ ناحيةٍ ينظر إليها رسولُ الله .

أصابت رسولَ الله ﷺ حالةٌ من عدم السيطرة على أعضاء الجسم ، بحيث ثبت على المكان الذي وقف فيه لا يقدر على التقدُّم ، ولا على

---

(١) مسلم من حديث رقم (١٦٠).

التراجع ؛ حتى امتنع جبريل الذي لا يعرف محمد ﷺ ماهيته عن الظهور له ، فأخذته الرجفة ، فتحرك متوجِّهاً إلى مكة ، وهو يرتجف من هَوْل ما رآه وسمعه[1] .

« . . . فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره (يرتعد) حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ، فزملوه (غطّوه) حتى ذهب عنه الروع (شدة الخوف) ثم قال لخديجة : أي خديجة! ما لي ؟ وأخبرها الخبر ، قال : لقد خشيت على نفسي. . . »[2] .

خففت خديجةُ عن زوجها المثالي ، واثقةً من أنَّ ما رآه زوجها شيئاً يجب معرفة حقيقته ، فأخذت محمداً ﷺ على الفور إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وورقة هذا كان قد نظر في وثنية قومه ، فلم يقتنع بها ، فأخذ يبحث عن دين إبراهيم حتى اعتنق المسيحية ، فأتقن اللغة اليونانية (أو لغة الإنجيل الذي توافر لديه) .

وقد كان متمكناً من لغة الإنجيل ؛ لدرجة أنه يستطيع أن يترجم أيَّ فقرةٍ إلى العربية ، أو ترجمة العربية إلى لغة الإنجيل التي يتقنها .

لكنّ ورقة هذا كان قد طعن بالسن ؛ لدرجة أنَّه فقد بصره ، فعندما حضرت إليه خديجة برفقة محمد ﷺ ؛ قالت له :

« أي عم اسمع من ابن أخيك! قال ورقة بن نوفل : يا بن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه ، فقال ورقة : هذا الناموس (الناموس ترجمتها العبرية توراة) الذي أنزل على موسى (ﷺ) يا ليتني فيها جذعاً (شاباً قوياً) يا ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك (لعلّه يقصد نبوءة أشعيا ٢١ ، ١٣) قال رسول الله ﷺ : أو مخرجي هم ؟! قال

---

(١) سيرة ابن هشام (ج١، ص١٧٧) بتصرف.

(٢) مسلم، من حديث رقم (١٦٠).

ورقة : نعم لم يأت رجلٌ قطُّ بما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً »[1] .

وتوالى الوحي على محمدٍ ﷺ ، بعد أن عرف تماماً من هو جبريل عليه السلام ، وما هي النبوة ، وأصبح وطؤها أكثر سهولة عليه .

يتضح مما سبق : أنَّ استقبال خبر النبوَّة لأوَّل مرَّةٍ صعبٌ جداً ، لا يستطيع أيُّ إنسانٍ احتماله ، ولا حتى إدراك وقعه وصعوبته .

ولعل مشاهدة ، أو معايشة حادثةٍ غير متوقعة لا يستطيع البشر تحمُّلها ، وربما أدَّت إلى الذهاب بعقول الناس ، ودليل ذلك ما نستطيع لمسه لدى المرضى النفسيين الذين أذهبت حوادث صعبة بعقولهم ، وعلى النقيض من ذلك فإنَّك تجد الأنبياء بعد حادثة مرعبة مثل حادثة الإعلام بالنبوَّة يزدادون بعدها حكمة ، وذكاءً ، وبصيرة ، لا يستطيع أن يرقى إليها أحدٌ من البشر .

وربَّما لاحظ القارىء أنَّ المسيح عليه السَّلام لم نذكر كيفية تلقِّيه خبر النبوَّة ، أقول : إنَّ القرآن الكريم أعلمنا أنَّ المسيح ويحيى (يوحنا) كانا أنبياء منذ ولدتهم أمهاتهم ، أمَّا الأناجيل فلم يرد فيها ما يشير إلى حدوث مثل حدث إعلام النبوة لموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، ولو سألنا أهل الإنجيل عن ذاك ؛ لقالوا : إنَّ المسيح عندهم (أكثر من نبيٍّ) .

ومع ذلك فإنَّك تجد في إنجيل برنابا (وهو إنجيل لا تعترف به الكنيسة) صورة مهمة للحظة تلقي المسيح لخبر نبوته حيث يقول برنابا وهو أحد تلاميذ المسيح :

« ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر كما أخبرني بذلك نفسه ، صعد إلى جبل الزيتون مع أمِّه ليجني زيتوناً ، وبينما كان يصلِّي في الظهيرة ،

---

(١) مسلم من حديث رقم (١٦٠).

وبلغ هذه الكلمات « يا رب برحمة . . . . » وإذا بنورٍ باهرٍ قد أحاط به ، وجوقٍ لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون « ليتمجَّد الله » ، فقدَّم له الملاك جبريل كتاباً كأنَّه مرآةٌ براقة . . . »[1] .

وعلى الرغم من أنَّ المسيح عليه السلام في هذا النص لا يبدو عليه حالة الرعب الشديد ، إلا أنَّ المسيح عليه السلام بدت عليه حالة الرُّعب والتعجُّب ؛ لدرجة أنه أخبر أمَّه مريم عليها السلام بما حدث له ، فقالت له :

« يا بني إني نبئت بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسم الله القدوس . ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمِّه ليمارس وظيفته النبوية » .

وعلى العموم فإنَّ ظهور النار في وسط صحراء مظلمة ، وكلام الله لموسى عليه السلام ، وظهور حشد من الملائكة يتقدمهم جبريل إلى المسيح عليه السلام ، وظهور جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ في الجبل تارةً وفي السماء تارةً أخرى مكلماً إياه بلغة الأمر ، ليس أمراً عادياً يستطيع أي شخص احتماله .

وخلاصة القول : إنَّ أحداً من البشر العاديين لا يستطيع احتمال موقفٍ واحدٍ من المواقف التي تعرَّض لها هؤلاء الأنبياء الكرام ، ولولا أنَّ الله تعالى قد جعل في هؤلاء الأنبياء قدراتٍ تؤهلهم لتحمُّل هذه المواقف ؛ لذهبت هذه المواقف بعقولهم ، ولما كانوا قادرين على إتمام استقبال الوحي ، وبالتالي متابعة النبوَّة .

من هنا يتبين لنا أنَّ المقدرة على احتمال حادثة الإعلام بالنبوَّة هو دليلٌ على نبوَّة الأنبياء .

* * *

---

(١) إنجيل برنابا ـ الإصحاح العاشر (١ ـ ٣) .

١٢ـ حفظ الله لأنبيائه
من الهلاك قبل ظهور نبوَّتهم

لا يمكن في حالٍ من الأحوال أن نقبل أنَّ نبيّاً أراد الله إكرامه بالنبوَّة ؛ هلك بشكلٍ من الأشكال قبل أن تظهر نبوَّته (ولا حتى بعدها كما سنرى لاحقاً) .

وعلى الرغم من عدم معرفتنا بحوادث ومجريات الحياة لدى الكثير من الأنبياء ، إلا أنَّ ظهور نبوَّة الأنبياء هي دليلٌ على حفظ الله لأنبيائه من الهلاك قبل أن تظهر نبوَّتهم ، ويكفي أن نعرف أنَّ موسى ، والمسيح ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين قد حفظهم الله تعالى من أن تطالهم أيدي أعدائهم ؛ حتى نعرف مقدار حفظ الله لأنبيائه .

فكلنا يعرف أن فرعون أمر بقتل جميع مواليد بني إسرائيل ، في الوقت الذي ولد فيه موسى عليه السلام ؛ مـتبقياً على حياة الإناث منهم .

ففي الحالة العادية التي تعرف فيها الأم أنَّ ابنها سوف يقتل ، فإنَّها ستلجأ إلى تهريب ابنها إلى بيتٍ آخر لدى عائلة مصرية من معارفهم ، أو تلجأ إلى تهريب ابنها إلى إحدى قبائل الصحراء القريبة ، أو تحفر له في دارها سرداباً ، أو ما شابه ذلك من الطرق الاحترازية التي تلجأ إليها الأمَّهات في مثل هذه الحالة .

لكنَّ أمَّ موسى عليه السلام ألقت ابنها في صندوقٍ ، ثمَّ ألقت الصندوق في نهر النيل ، وهذا التصرُّف يبدو غير منطقيٍّ ولا معقولٍ ، بل ويبدو أقرب إلى الجنون .

لكنَّ مجريات الأحداث تدلُّ على أنَّ أمَّ موسى تصرفت تصرفاً مدهِشاً ، حيث عاد ابنها الرضيع إليها بأمرٍ من فرعون لترضعه ، وتنال مالاً على إرضاعها لولدها ، الأمر الذي جعل أمَّ وأخت موسى تنالان حظوة عند فرعون وأهله ؛ نتيجة إرضاع موسى عليه السلام ؛ الذي أحبَّه فرعون وأهل بيته ، بعدما رفض موسى عليه السلام أن يقبل الرضاعة من أثداء النسوة اللائي أُحضرن لإرضاعه ، بالإضافة إلى حسم الأمر مع جنود فرعون الذين شكُّوا في عدم وجود مولود لدى أم موسى ، الأمر الذي يتطلب تكرار زيارة أم موسى للتأكد من عدم وجود مولودٍ لديها .

بناءً على ذلك فإنه من غير المقبول أبداً أن تكون أمُّ موسى تصرفت هذا التصرُّف بناءً على حساباتها الذاتية ، بل هو ناتجُ عمَّن يعرف الغيب ، ويطمئن لما ستجري فيه الأمور ، الأمر الذي تجاهلته التوراة ، وأظهره الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[القصص : ٧ـ ١٣] .

وهكذا نجد أنَّ القرآن الكريم قد أعطى تفسيراً منطقياً لتصرف أم

موسى ؛ الذي نتج عن إلهام الله تعالى لها بأن تلقي ابنها في النهر ، وطمأنها بإعادته إليها ؛ لأنه نبيٌّ من الأنبياء ، وسيدكُّ عرش فرعون .

وعلى الرغم من ذلك فقد كادت روح أم موسى تزهق خوفاً على وليدها ، لكنَّ الله تعالى طمأنها ، وثبَّت قلبها عندما حاولت أن تبوح للناس بسرِّ ولدها . ومع ذلك أرسلت أخته لتراقب الصندوق عن كثبٍ ، ولم تطمئنَّ إلا عندما أعلمتها ابنتها أنَّ موسى عليه السلام قد تبنَّته أسرة فرعون ، لكنَّ موسى عليه السلام لم يقبل أيَّ ثديٍ يُقدَّم له ، فعرفت أنَّ وعد الله حق ، وانتظرت حتى عاد إليها وليدها ، فأنقذ اللهُ موسى عليه السلام ، وقرَّت عينُ أمه به .

كذلك فإنَّ المسيح عليه السلام قد أنقذه الله من الذَّبح على يد جنود (هيردوس) الذي أمر بقتل أطفال بيت لحم وما حولها .

وذلك بأن ظهر ملاك ليوسف في الرؤيا ، وأمره بأن يهرب بزوجته وابنها إلى مصر حتَّى إشعارٍ آخر ، ففعل يوسف ذلك ، وبقي في مصر حتى مات (هيردوس) ، حيث أمره الملاك أيضاً بالعودة إلى الناصرة ، لأنَّ (أرخيلاوس) الملك الجديد لا يمتدُّ نفوذه إلى الناصرة ، وكان عمره حين ذلك سبع سنوات .

وهكذا فإنَّ الله تعالى قد أنقذ المسيح عليه السلام ذهاباً وإياباً وإقامة[1] .

ويبدو لنا كموحدين ألا نقبل رواية الأناجيل الأربعة حول نبوءة المجوس بميلاد المسيح عليه السلام ، لكنَّ الأمر الذي يمكن قبوله من المجوس وهم وثنيُّون : أنَّ بعض ركاب قافلة من المجوس كانوا من

---

(١) متَّى (٢، ١ـ ٢٣) وبرنابا (الفصل الثامن والتاسع).

الفلكيين المهتمين بالنجوم ، حيث يراقبون النُّجوم للاهتداء إلى اتجاههم ليلاً ؛ لاحظوا نجماً ثابتاً وشديد التألُّق في السماء ظهر لأوَّل مرَّةٍ باتجاه المشرق ، تشاوروا ، فأقرُّوا أنَّه لا يمكن إلا أن يكون وراء ظهور ذلك النجم سرٌّ ، فدفعهم فضولهم لأن يعرفوا سببه ، فاتجهوا شرقاً لعلَّهم يجدون تفسيراً لذلك .

وفعلاً وصلوا إلى بيت لحم التي يقف فوقها ذلك النجم ، فدخل المجوس بيت لحم ، وأخذوا يسألون عن الحدث الذي جعل النجم يبدو في السَّماء ، عجز الناس عن تفسير سرِّ هذا النجم الذي أخذوا يراقبونه . انتشر الخبر في بيت لحم حتى وصل إلى الكهنة والكتبة الذين توجَّب أن يجدوا للناس تفسيراً لظاهرة النَّجم المتألق .

وانتشر الخبر حتى وصل إلى (هيردوس) حيث أحضر الكهنة ، وسألهم : « أين يولد المسيح ؟ » فأجابوه بناءً على نبوءةٍ كانت موجودةً في العهد القديم بأنَّ المسيح يولد في بيت لحم .

ولما كان أمرُ معرفة المولود أمراً صعباً ، قرَّر (هيردوس) قتل كافة الأولاد المولودين في بيت لحم وما حولها ، ويبدو أنَّ (هيردوس) لم يعلم بهذه الحادثة إلا بعد سنتين من ولادة المسيح ؛ لأنه أمر بقتل كل من عمره سنتان وما فوق[1] .

وُلد محمدٌ ﷺ يتيم الأب ، حيث مات أبوه عبد الله ، وهو لم يولد بعد ، فكان وليُّ أمره جدَّه عبد المطلب مع أنَّ أمه ماتت أيضاً ، وله من العمر ستُّ سنين ، وكفله جدُّه حتى مات ، وعند ذلك كان له من العمر ثماني سنين .

---

(١) متىّ (٢، ١ـ ٢٣)، ولوقا (٢، ١ـ ٧) وبرنابا (الفصل السادس).

تولى أمر محمد ﷺ عمُّه شقيق والده (من أم واحدة هي فاطمة) وهو أبو طالب ، وكان أبو طالب يعمل تاجراً ، ولما بلغ محمد ﷺ التاسعة من عمره تعلَّق بعمِّه أبي طالب لرغبته بالسفر معه إلى الشام مع القافلة التي هيأها أبو طالب للذهاب بها إلى الشام .

رقَّ قلبُ أبي طالب لابن أخيه اليتيم ، فوافق على اصطحابه معه في قافلته المتوجهة إلى الشام ، ولما وصل إلى بصرى الشام حدث ما يلي :

« . . . فلمَّا نزل الرَّكب بصرى من أرض الشام ، وبها راهبٌ يقال له : بحيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قـطُّ (أي : دهر) راهبٌ ، إليه يصير علمهم عن كتابٍ فيها فيما يزعمون ، يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ، ببحيرى ، وكانوا كثيراً ما يمرُّون به قبل ذلك فلا يكلمهم ، ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته ، صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته ، يزعمون أنَّه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته ، في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظلُّه من بين القوم . ثم أقبلوا فنزلوا في ظلّ شجرةٍ قريباً منه . فنظر إلى الغمامة حين أظلَّت الشجرة ، وتهصَّرت أغصانُ الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظلَّ تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، ثم أرسل إليهم ، فقال : إنِّي قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، فأنا أحبُّ أن تحضروا كلكم ، صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحركم ، فقال له رجلٌ منهم : والله يا بحيرى إنَّ لك لشأناً اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا ، وقد كنا نمرُّ بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيوف ، وقد أحببتُ أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاماً ، فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه ، وتخلَّف رسول الله ﷺ من بين القوم ؛ لحداثة سنِّه ، في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ، ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش! لا يتخلفنَّ أحدٌ منكم عن طعامي ، قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلا غلامٌ ، وهو أحدثُ القوم سناً ، فتخلف في رحالهم ، فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ، فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى ، إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم . فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى ، فقال له : يا غلام! أسألك بحق اللات والعزَّى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ؛ وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما .

فزعموا : أنَّ رسول الله ﷺ قال : لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قطُّ بغضهما ، فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، فقال له : سلني عما بدا لك ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله : من نومه ، وهيئته ، وأموره ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوَّة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

فلما فرغ ، أقبل على عمِّه أبي طالب ، فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيَّاً ، قال : فإنه ابنُ أخي ، قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات ، وأمه حبلى به ، قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى

بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبلغنّه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده .

فخرج به عمُّه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ، فزعموا فيما روى الناس : أنَّ زُرَيْراً ، وتمَّاماً ، ودَرِساً ، وهم نفرٌ من أهل الكتاب ، قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رآه بحيرى في ذلك السَفَر ، الذي كان فيه مع عمه أبي طالب ، فأرادوه ، فردَّهم عنه بحيرى ، وذكَّرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدَّقوه بما قال ، فتركوه وانصرفوا »[1] .

بناءً على ذلك فإنَّ أبا طالب منع محمداً ﷺ من الخروج من مكة ، ودفع به إلى شعاب مكة ليكتفي برعاية الأغنام بعدما تبين له أنَّ محمداً ﷺ سيكون ذا شأن ، وأنَّ اليهود سوف يكيدون له بناءً على تحذير الراهب بحيرى ، وبناءً على محاولة زُرَيْرٍ ، وتمَّام ، ودريس لقتل محمد ﷺ .

والخلاصة : يتبين لنا أنَّ الله تعالى يتولَّى برعايته أنبياءه منذ ولادتهم ، ولا تستطيع أيدي البشر أن تنال من أنبيائه شرَّاً ، ولا بشكلٍ من الأشكال .

أ ـ قضية بحيرى الراهب وإشكاليتها :

تضاربت الآراءُ تضارباً غريباً حول رواية بحيرى وما تضمنته من أحداثٍ ، ومهما كانت الآراء في هذه الرواية ، ومصداقيتها ، وحدوثها ، فإنني لا أجد مجالاً للشك في هذه الرواية ، ولا جزئياتها ، ولا تفصيلاتها ، وذلك بناءً على الأسس التالية :

---

(١) سيرة ابن هشام (ج١ ، ص١٣٦) .

أ ـ إنَّ استخدام ابن إسحاق لعبارة (زعموا) : لا يعني أبداً أنَّ يزعم (يدَّعي) حيث إنَّ مسلماً اعتمد كلمة زعم بمعنى قال[1] .

ولو أنَّ ابن هشام وجد شكاً في هذه الرواية لحذفها دون تردد ، لكن يبدو أنَّ ابن إسحاق وابن هشام بعده سمعا هذه الرواية من الكثيرين ، ولكن دون أن يجدوا واحداً ممَّن رافق أبا طالب في رحلته حتى يذكروا اسمه .

ب ـ الراهب بحيرى وكتب الأساقفة :

بحث الشيخ الخضري بك عن اسم هذا الراهب فلم يجد له ذكراً في كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام ، أو بصرى ، والمشهورين من رجال الدين[2] .

أقول : إن العرب دائماً كانت تُحوِّر الأسماء غير العربية إلى أسماء محورة إلى العربية ، ومثال ذلك (رودريجو يطلقون عليه لوزاريق ، كيرس أطلقوا عليه المقوقص ، الباراكليتوس أطلقوا عليه الفاراقليط . . . .) .

وكذلك الغرب فإنه كثيراً ما حوّر الأسماء العربية إلى أجنبية ، ومثال ذلك يطلقون على علاء الدين : ألادان ، وعلى ابن سينا : فاينسين ، وعلى صلاح الدين : سلادان . . . وهكذا .

لذلك فإنَّ اسم بحيرى بالذات من الممكن عدم وجوده ، مع احتمال وجود اسم مقارب لهذا الاسم « هذا مع كل احترامنا وتقديرنا للشيخ الخضري بك الذي نتمنى أن يجزيه الله خيراً عن بحثه » .

---

(١) مقدمة صحيح مسلم في أولها (ج١ ، ص٤٥) .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية ـ محمد خضري بك (ج١ ، ص٦٣) .

هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فإنَّ وجود ذكر الراهب بحيرى في كتب القساوسة من العبث البحث عنه فيها ، وذلك لأنَّ بحيرى هذا على مذهب مخالف للمذهب الكاثوليكي أو الأرثوذوكسي ، حيث يمكن أن يكون مذهبه نسطورياً ، أو أريوسياً ، وكلا المذهبين يعتبران كفراً بالنسبة للكاثوليكية والأرثوذوكسية .

ودليل ذلك أنَّ بحيرى كان في صومعةٍ معتزلاً ، ولو كان على مذهب العامة لكانت إقامته في دير معترف به أسهل ، وأيسر ، وأفضل له ، وهذا غير ممكن بالنسبة له .

والدليل الداعم لهذا الرأي هو العبارة الواردة في النص والتي تقول : (ورث كتاباً كانوا يتوارثونه كابر عن كابر . . . .) .

ج ـ لماذا ترك بحيرى صومعته ؟

يشير نصُّ الرواية أنَّ القوافل كانت تذهب وتعود ولا يأبه بهم بحيرى ، لكن عندما ينزل بحيرى من صومعته فلا بدَّ أنَّ هناك أمراً خطيراً دفعه إلى النزول ، وقطع عزلته ، وعبادته ، فما هو هذا الأمر ؟

بينما بحيرى في صومعته شاهد غمامة تتحرك فوق قافلة قادمة من الشام ، وتأكَّد له الأمر أكثر فأكثر عندما وصلت القافلةُ بالقرب منه ، فتوقفت الغمامة عن التحرك ، وثبتت في مكانها فوق شجرة .

إنَّ مشاهدة هذه الأحداث حركت ما في نفس هذا الراهب الذي علم من التوراة أنَّ غمامة كانت تتحرك مع خيمة الاجتماع في عصر موسى عليه السلام[1] ، إنَّ هذه الغمامة جعلت الراهب ينزل ليستطلع هذا الأمر العجيب .

---

(١) الخروج (٤٠، ٣٨).

ويؤكد ميسرة في حديثه لسيدته خديجة إظلال غمامة لمحمد ﷺ عندما يشتدُّ الحرُّ أثناء سير القافلة[1] .

والسؤال الذي أراد الراهب أن يجد الإجابة عنه : لماذا تظهر الغيمة المقدسة فوق قافلة من الوثنيين ؟ وقد قدَّر الراهب سلفاً أنَّ القوم لا يملكون جواباً يشفيه إذا سألهم ؛ لأنهم بدوٌ ، وثنييون لذلك قرَّر أن يكتشف الحقيقة بنفسه دون سؤال ، من أجل ذلك لجأ إلى دعوتهم لوليمة كبيرة أعدَّها لهم ، ودعاهم إليها دون أن يستثنوا أحداً ، فلما نظر بحيرى من صومعته شاهد الغمامة لازالت في موضعها ، فعرف أنَّ كلَّ من جاء إليه ليس هو صاحب هذه الغمامة بل صاحبها المتخلف عن الوليمة .

عندها سأل أهل القافلة عمَّن تخلف عن القافلة ، فأجابوه بأنَّ غلاماً هو الذي تخلف ، فطلب منهم إحضاره ، فأخذه ، واحتضنه بحجَّة تحيّته ، وأجلسه في مكانٍ يستطيع مراقبته بسهولةٍ .

عرف بحيرى بعلمه أنَّ هذا الغلام هو صاحب الغمامة التي لابدَّ أنها أصبحت فوق مكان الاجتماع للوليمة .

د ـ بحيرى يطبق معارفه على النبيِّ المنتظر :

سمع بحيرى أهل القافلة يحلفون باللات والعزَّى فاستحلف محمداً ﷺ بهما ، فقال له محمد ﷺ : لا تسألني باللات والعزى ، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قطُّ بغضي لهما . عندها سأله بالله أن يخبره عن أشياء من حالة نومه ، وهيئته ، وأموره ، فأخبره رسول الله ﷺ ، وهنا نجد أنَّ بحيرى هذا كان ذكيّاً جداً في طلبه ، حيث إنَّ الرؤى وردت في سفر العدد : « لو كان فيكم نبياً لي أنا الرب لظهرت له بالرؤيا وخاطبته في

---

(١) سيرة ابن هشام (ج١ ، ص١٤٠).

الحلم »[1] . فجعل رسولُ الله يخاطبه فيوافق ما عند بحيرى من صفته .

وكان بحيرى يعرف أنَّ أشعيا له نبوءة تقول :

« لأنَّه يولد لنا ولد ، ويُعطى لنا ابن ، وتكون الرئاسة على كتفه ، يسمَّى باسم عجيبٍ ، ويكون أباً أبدياً ورئيس السَّلام سلطانه يزداد قوة ، ومملكته في سلام دائم ، يوطد عرش داود ، ويثبت أركان مملكته على الحقِّ والعدل من الآن إلى الأبد غيرة الربِّ القدير تعمل ذلك »[2] .

من أجل ذلك نظر بحيرى إلى ظهر محمد ﷺ ، فرأى العلامة التي على كتفه ، واسمه محمد ﷺ لم يُسمَّ به أحد من بني إسرائيل ؛ لذلك فهو غريب (سنعود للبحث في العلامة والاسم فيما بعد) .

ثم التفت بحيرى إلى أبي طالب ، وسأله عن قرابة محمد ﷺ ، فقال : إنه ابنه ، فقال له بحيرى : ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون له أبٌ حيٌّ بل يجب أن يكون يتيماً . عندها قال له أبو طالب : إنَّ محمداً ﷺ يتيم ، فقال له بحيرى : صدقت .

ومن خلال نبوءة أشعيا علم أنَّ محمداً ﷺ سيكون آخر الأنبياء ، ونبوَّته ستكون على مستوى نبوة موسى عليه السلام ، لأنَّ موسى قال عنه : إنه مثله ، كذلك أخبر عنه المسيح عليه السلام بأنّه سيدافع عنه وسيبرئه مما نُسب إليه ، فهذا المسيح عليه السلام ليس له أب ، وإذا كان موسى عليه السلام مات أَبوه وهو صغير فإنَّ نبياً على الدرجة نفسها ينبغي أن يفقد أباه بصورة ، أو بأخرى .

ولما تأكد بحيرى من نبوة محمدٍ ﷺ نصح عمَّه أبا طالبٍ أن يخفيه عن أعين اليهود ، ويبعده عن الاحتكاك بالناس حتى لا ينكشف خبره .

---

(١) سفر العدد (١٢، ٦).

(٢) أشعيا (٩، ٥).

إنَّ إيراد رواية بحيرى في سيرة ابن هشام وقبله ابن إسحاق اللذين لا يعرفان شيئاً عن التوراة ، ولا الأناجيل لهذه العلامات دون تفسيرها نقلاً عن أشخاصٍ ، كما سمعوها دون أن تتعارض مع معطيات العهد القديم ، ولا حتى الجديد إنما تدلُّ على حدوث الحدث ، ووجود شخصية بحيرى بصورةٍ حقيقيةٍ وقطعيةٍ ، لا تقبل الشكَّ .

هـ ـ بحيرى يدفع عن محمدٍ ﷺ مكيدة القتل بالإقناع :

أعلم بحيرى أبا طالب أنَّ ابن أخيه سيكون نبيّاً ، فتابع أبو طالب سفره إلى دمشق ليبيع تجارته ، فرصد له ثلاثة أشخاص أرادوا أن يقتلوا محمداً ﷺ ، وذلك لأنهم تأكَّدوا من علامات نبوة محمد ﷺ ، كما عرفها بحيرى .

وهؤلاء الثلاثة هم : زُرَيْر ، وتمَّام ، ودَريس ؛ الذين يؤمنون بأنَّ المسيح عليه السلام يكون « مشيراً وإلهاً قديراً »[1] ، وبذلك فإنَّ ظهور بشرية محمد ﷺ ينسف اعتقادهم بألوهية المسيح ، الأمر الذي دفعهم إلى التدبير لقتل محمد ﷺ في طريق عودة القافلة إلى مكة ، لكن بحيرى اجتمع بالرجال الثلاثة ، وأقنعهم بأنَّ الذي يرغبون بقتله إن كان نبياً ما استطاعوا قتله ، فإن حاولوا أخفقوا وعندها ستجتمع العربُ لحربهم ، بالإضافة إلى نصوص أخرى موجودة في الكتاب المقدَّس دلَّهم عليها .

من هنا يتضح أنَّ بحيرى ليس شخصية خيالية ، كما أنَّه ليس شخصية علاَّمةً للغيوب ، بل هو راهب يتحرّى الصدق مع نفسه ، ومع الناس ، ومع الله .

* * *

---

(١) أشعيا (٩، ٥).

١٣ـ كسب الأنبياء لمعيشتهم من تعب أيديهم قبل النبوَّة

تدلُّ الدراسةُ للوضع المادِّي والمهني للأنبياء جميعهم ، أنَّهم لم يكونوا من طبقةٍ فقيرة لدرجة الاستجداء ، كما أنَّهم لم يكونوا أغنياء لدرجة أنَّك تستطيع أن تصنفهم في عداد الأثرياء ، فلقد كانوا قبل نبوَّتهم يكسبون معيشتهم بالدرجة التي تكفل لهم عدم الحاجة إلى طلب المعونة من الناس .

فمن الثابت أنَّ يعقوب عليه السلام قد عمل راعياً للأغنام عند خاله (لابان بن بتوئيل) الآرامي[١] .

كما عمل يوسف عليه السلام في رعي الأغنام قبل نبوَّته أيضاً[٢] ، كما أنَّ موسى عليه السلام عمل راعياً للأغنام عند ليثرون (شعيب) حتى نبوَّته[٣] ، وكان داود قد رعى الغنم قبل نبوَّته ، كما جاء في سفر صموئيل الأول (١٦ ، ١١) ، أمَّا المسيح عليه السلام فقد عمل نجاراً في الناصرة[٤] .

كذلك محمد ﷺ فقد عمل راعياً للأغنام لفترةٍ طويلةٍ ، حتى تجاوز الثلاثين من عمره ، وذلك لأنَّ عمَّه أبا طالب دفعه إلى رعاية الأغنام خوفاً

---

(١) التكوين (٢٩، ٧).
(٢) التكوين (٣٧، ١٤).
(٣) الخروج (٣، ١).
(٤) مرقص (٦، ٣).

عليه من أن تصل إليه أيدي اليهود ؛ الذين حذَّره منهم الراهب بحيرى .

بقي محمد ﷺ راعياً للأغنام حتى ما بعد الثلاثين ، حيث تاجر لخديجة بنت خويلد بأموالها ، فذهب بتجارتها إلى الشام ، فربحت المال الكثير نتيجةً لأمانة محمد ﷺ وإخلاصه في تأدية حقّ صاحبة المال .

وهكذا تجد أنَّ ارتزاق الأنبياء من خلال ممارستهم لأعمالٍ يدويةٍ ؛ لا يمكن إلا أن يكون عملاً مقصوداً أراد الله تعالى به أن يعطينا دليلاً على نبوَّة الأنبياء .

* * *

الفصل الثاني

المواصفات الخاصّة

بمحمد ﷺ قبل ظهور نبوّته

مدخل :

لاحظنا في القسم الأول أنَّ الأنبياء جميعهم كانت تتوافر لديهم مواصفات وخصائص متعددةٌ منحهم الله إيَّاها فضلاً عن الناس العاديين ، وذلك لأنَّ شرف النبوَّة لا يليق إلا بأشخاصٍ كمَّلهم الله تعالى ، حتى لا تكون فيهم عيوب تجعل الناس ينفرون ، أو يعرضون عن قبول نبوّتهم ، أو يطعنون ، أو يشكّكون في شخصياتهم ، وبالتالي في نبوّتهم .

وعلى الرغم من أنَّ محمداً ﷺ قد أعطاه الله تعالى كلَّ الخصائص الحسنة التي أعطيت للأنبياء الذين سبقوه في ظهور النبوَّة ، مع ذلك فإنَّ محمداً ﷺ قد أنعم الله تعالى عليه بإعطائه خاصَّة أخرى أضيفت إلى خصائص النبوَّة العامة التي تحدثنا عنها سابقاً ، وهي :

عدم مقدرة محمد ﷺ على أداء أفعال لا تليق بنبوَّته الموعودة :

تسري في المجتمعات عاداتٌ وأعرافٌ يمارسها الناس عادةً دون أن يعيبها أحدٌ ، ودون أن يعترض عليها أحدٌ ، أو ينكرها أحدٌ .

لكننا نجد في سيرة محمد ﷺ شيئاً متميزاً في سجلِّ النبوات ، حيث لم نجد في سير الأنبياء السابقين ما كان من أمر محمد ﷺ عندما رغب في ممارسة أفعال غير مستهجنة ولا مستغربة في مجتمعه ، حيث تدخلت قدرة الله لتمنعه بشكل قسريٍّ عن أداء هذه الأعمال التي لا تليق بما سيصير إليه من نبوَّة .

ومن ذلك ما يلي :

لعلَّ من أحبِّ الأعمال إلى الأطفال اللعب مع أترابهم ، ولا فرق في ذلك بين مجتمعات متطورة أو غير متطورة ، والفرق هو فقط في مادة اللعب ، فاللعب بالنسبة لأطفال مكة كان بمثابة مسابقة نقل الحجارة بين الأطفال ، حيث يجتهد الأطفال في نقل أكبر كميَّةٍ من الحجارة لمسافة محددة .

وعندما كان محمد ﷺ غلاماً لعب مع الأطفال فاجتهد في حمل الحجارة مستعيناً بثوبه ، كاشفاً عن عورته ، فماذا حدث ؟ يقول رسولُ الله عن ذلك :

« لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرَّى ، وأخذ إزاره ، فجعله على رقبته ، يحمل الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمني لاكمٌ ما أراه ، لكمةً وجيعة ، ثم قال : شدَّ عليك إزارك ، قال : فأخذته وشددته عليَّ ، ثم جعلت أحملُ الحجارة على رقبتي وإزاري عليَّ من بين أصحابي »[1] .

كذلك عندما قررتْ قريش تجديدَ بناء الكعبة ، استنفرت كلَّ رجلٍ فيها

---

(١) سيرة ابن هشام (ج١ ، ص١٣٧) .

للعمل في بناء الكعبة ، ومحمد ﷺ شارك أعمامه في المساهمة في بناء الكعبة ، وأثناء العمل قال العباس لابن أخيه محمد ﷺ :

« . . . . يا بن أخي! لو حللتَ إزارك فجعلته على منكبك (كتفك) دون الحجارة قال : فحلّه ، فجعله ، على منكبه فسقط مغشياً عليه . قال : فما رُؤي بعد ذلك اليوم عرياناً »[1] .

ومعنى الحديث : أنَّ محمداً ﷺ عندما حاول أن يفعل ما يفعله غيره من عملٍ يؤدي إلى كشف العورة ، منع هو بالذات عن ذلك ، بأن أغمي عليه شاخصاً بصره إلى السماء حتى غطى عورته ؛ لأنه ممنوع من أداء أفعال لا تليق بنبوَّةٍ ستمنح له .

كذلك فإنَّ حضور حفلات الزفاف ليس معيباً ، ولا شائناً في كلِّ المجتمعات إلا أنَّ محمداً ﷺ ليس كأي شخصٍ ، فقد منعه الله من الحضور والمشاهدة مرَّتين :

يقول الرسول ﷺ : « ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرَّتين . كلُّ ذلك يحول الله بيني وبينه . ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة . قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكة ، وأسمر كما يسمر الشباب . فقال : أفعل ، فخرجتُ حتى إذا كنت عند أول دارٍ بمكة ، سمعتُ عزفاً ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس . فجلست أسمع ، فضرب الله على أذني ، فنمتُ فما أيقظني إلا حرُّ الشمس . فعدتُ إلى صاحبي فسألني ، فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة ، فأصابني مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بعده بسوء »[2] .

---

(١) مسلم حديث رقم (٣٤٠) .

(٢) فقه السيرة، للدكتور البوطي (ص٤٩) وقد عزاه إلى ابن الأثير، والحاكم، والطبراني.

وهنا نجد : أنَّ محمداً ﷺ رغب بأن يحضر حفلة زفاف ، فأنامه الله مع كل ما في العرس من طبل وزمرٍ وضجيج ، ثم عاد ليحضر مرَّة أخرى فأنامه الله ، فعرف محمد ﷺ أنَّ هناك شيئاً ما يمنعه من حضورها ، فلم يكررها أبداً .

* * *

ملاحظة عامة

يمكننا أن نستنتج من خلال مواصفات وخصائص الأنبياء ما قبل نبوّتهم الملاحظات التالية :

١ـ إنَّ الخصائص العامة كلُّها صفات وخصائص متلازمة ، ومترابطة ، بحيث تكاد تبدو كأنَّها صفة واحدة في النبي ، وذلك لجعله قادراً وبشكلٍ مطلقٍ على أداء مستحقات النبوّة .

٢ـ إن الخصائص والمواصفات كافة هي منح من الله في كليتها ؛ لأنَّ أيَّ نبيٍّ لا يستطيع أن يكتسب أيَّ صفة أو خاصيةٍ بناءً على قدراته الذاتية ، أو رأيه ، أو قناعته .

٣ـ إنَّ اجتماع الخصائص العامة كافة في جميع الأنبياء ، تجعلنا نستنتج أنَّ هذه المواصفات تشكل الإطار العام للنبوّة .

بناءً على هذه الاستنتاجات نستطيع أن نفهم المعنى المقصود من كلمة الاصطفاء التي وردت في القرآن الكريم ، والتي ترتبط دائماً وتتلازم مع تكليف الله لأنبيائه بالنبوّة ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣٣ـ ٣٤] .

كذلك قوله تعالى أيضاً :

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[النمل : ٥٩] .

فالاصطفاء هو أن يخلق الله إنساناً له مواصفات محددة تؤهله للنبوة ، فهو إذاً أشبه بصناعته .

فالاصطفاء إذاً هو خلق إنسان مؤهل للنبوة تماماً ، وليست اختياراً أو انتخاباً من بين الناس ؛ كما فهم هذا المعنى بعض المفسرين .

ومصداق ذلك قوله تعالى عندما خاطب موسى عليه قائلاً :

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾

[طه : ٤١ـ ٤٢] .

* * *